من شؤون المسلمين والعالم

مأساة أخرى في تشاد

ليست المأساة التي تشهدها أرض تشاد الإسلاميّة هذه الأيام المأساة الأولى في تاريخها الذي بدأ واقعيـــاً بوصـــول الإسلام إليها ، وانتشاره فيها حتى أصبحت نسبة المسلمين بين ٨٠% و٩٢% كما تقول المصادر الإسلاميّة . وتقول مصادر التبشير النصرانية إنّها في حدود ٥٠% ، ولا عجب في صدور هذه الادّعاءات عن المبـــشّرين ، فالمـــستعمر الفرنسي هو الذي زرعهم زرعاً في أرض تشاد ، ولا سيّما في المناطق الجنوبية .. حيث كانت مقاومة أمراء المسلمين مثل الزبير وسليمان ورابح سبباً في خسائر كبيرة أصابت الفرنسيين قبل سيطرتهم على تشاد

واقترنت سيطرتهم بالمآسي ، فقد عجزوا عن تثبيت أقدامهم في الجنوب إلاّ عام ١٩١٧م ، عام مذبحة (كبكـــب) التي قتلوا فيها ٤٠٠ عالم مسلم بالساطور .. وعجزوا عن تثبيت أقدامهم في الشمال إلاّ عام ١٩٣٠م بعـــد حمـــلات عسكرية متوالية وبعد طرد المئات من أئمة المساجد والعلماء وحفظة القرآن الكريم

وتابع الفرنسيون من بعد ومعهم ٥% من السكان ، ممّن ربّاهم التبشير والاستعمار فتنصروا وتغرّبـــوا .. تـــابعوا صناعة المآسي ، ولا سيّما في فترة حكم تومبلباي الطويلة ، الذي اشتهر بنشر النفوذ الصهيونيّ في البلاد ، وبملاحقته –بعد استتباب مقاليد القوة في يديه بالمساعدة الفرنسية واليهودية– لكلّ من رفع للإسلام صوتاً في تـــشاد .. مثـــل الشيخ بن إبراهيم قاضي القضاة سابقاً ، ومحمد عبد الكريم وبابا حسن وعلي كوسو وأبا نسرو .. من الزعماء

وكان تومبلباي رئيساً للحزب التقدّمي التشادي الذي يرأسه (ودّاي) الآن ، وقد نشأ هذا الحزب عـــن اتحـــاد الحزب الراديكالي وحزب أوديت ، وكلّ منهما تأسّس في عهد الاستعمار الفرنسي كفرع عن حزب فرنسي

ومن الأخطاء الشائعة في بلادنا الإسلاميّة القول إنّ شمال تشاد المسلم في حرب أهلية مع جنوب تشاد النصراني .. فتشاد كلّها بلد إسلامي ، وليس للنصارى فيها وجود إلاّ وجود فرض السيطرة بالقوة والدعم من خارج تـــشاد .. وما برزت للجنوب أهمية خاصّة به ، إلاّ لأنّ سيطرة فرنسا فيه سبقت على سيطرتها في الشمال ، فكانت أقدر علـــى تثبيت مراكز التبشير بالقوة ، وعلى تسليم الثروات والأراضي للفرنسيين ولخرّيجي التبشير .. لتضمن استمرار نفوذها بعد خروجها عسكرياً ، كما فعلت في العديد من البلدان الإسلاميّة الإفريقية الأخرى

بينما برزت للشمال أهمّية خاصة به من خلال قضية الحدود التي أوجدها الاستعمار الفرنسي والإيطالي معاً بـــين تشاد وليبيا ، شأنه في ذلك شأن الاستعمار في كلّ أرض إسلامية استولى عليها فترة من الزمن .. وما عرفـــت ليبيـــا وتشاد حدوداً في عهد حكم الإسلام الواحد الموحّد ، حتى كانت معاهدة فرنسا وإيطاليا عام ١٩١٩م ثم معاهدة عام ١٩٣٥م ، وكانت نتيجة المعاهدتين (المقصودة) أن تنظر كلّ من ليبيا وتشاد إلى قطعة من الأرض كسبب نزاع دائـــم بينهما

وإنّ للمأساة الراهنة في تشاد وجوهاً متعدّدة ، أخطرها أنّ الذي يدفع ثمن النـــزاعات هم أبناء المسلمين في تشاد ، فشهداؤهم يعدّون الألوف ، ومشرّدوهم عشرات الألوف .. وحياتهم حياة الفقر والبؤس والحرمان والمجاعـــات ، وثرواتهم في أيدي أعدائهم من داخل البلاد وخارجها

ولم تكن القضية في تشاد في الماضي ولا هي في الحاضر قضية الحرب الأهلية بين فريقين أو أكثر من أبناء الشعب .. ولا قضية ائتلاف ونزاع مرحلة بعد مرحلة بين الإحدى عشرة فرقة التي تضمّها الحكومة الائتلافية الأخيرة

إنّما كانت ولا تزال قضية شعب محروم من أبسط حقوقه الإنسانية ، محكوم بالحديد والنار على مدى عـــشرات السنين ، يساق أبناؤه إلى حتفهم .. ضحية نزاعات بين زعماء يبحثون عن أبشع السبل لانفراد كلّ منهم بالـــسيطرة دون الآخر .. وضحيّة قوى خارجية تريد تحقيق مصالحها الذاتية من خلال دعم هذا الفريق تارة وذاك الفريق تـــارة أخرى

وإنّ من أشدّ وجوه هذه المأساة الطويلة في تاريخ تشاد الحديث ، أنّ الجهات الرسمية في بلادنا العربية الإســـلاميّة التي تقول إنّها تمدّ يد العون لتشاد ، كانت تنطلق من كلّ مصلحة ممكنة إلاّ مصلحة إسلام أبناء تـــشاد أنفـــسهم .. فكم من زعيم عربيّ وضع يده في يد تومبلباي وهو يقتّل المسلمين ويعتقل العلماء ويطرد الزعماء ويزيـــد الـــشعب المسلم حرماناً على حرمان

وكم من زعيم عربي تجاهل وجود تشاد وشعبها تجاهلاً كاملاً من الأصل .. وتجاهل صمود هذا الشعب المـــسلم رغم ضغوط الحاكم والقوى الاستعمارية الصليبية والقوى الصهيونية ، ضد مساعي تثبيت النفوذ اليهودي في تـــشاد ومن خلالها في دول إفريقية أخرى

ويبرز دور نظام الحكم الحالي في ليبيا في صورة مؤلمة .. فتبديل جبهات القتال ، والتضحية بالمئات من أبناء ليبيـــا وأبناء تشاد على السواء ، لم يكن في الماضي ، وليس هو في الحاضر بهدف خدمة مصلحة تشاد المسلمة ، ولا ليبيـــا المسلمة .. إنّما حكمته وتحكمه مصالح أخرى لنظام الحكم نفسه ، أقل ما يقال فيها الرغبة في بسط السيطرة بأيّ ثمن

ولن تنتهي مأساة تشاد بجولة عسكرية حاسمة فوراء كلّ فرقة تنتصر أو تنهزم قوى خارجية تجدّد قـــدرتها علـــى القتال من جديد .. ولا بتدخّل خارجي يفرض ، فليس هناك جهة خارجية واحدة تتدخّل لمصلحة البلاد نفـــسها .. ولا بائتلاف جديدٍ يُشكَّل ، فرؤوس الائتلاف أنفسهم هم الذين يفكّرون أثناء مفاوضات الائتلاف بالإعداد لجولات قتال جديدة

إنّما تنتهي المأساة عندما يظهر على أرض تشاد نفسها ، رجال يصدرون عن إسلام البلاد وأهلـــها ، ويـــسيرون على خطى حكامها وزعمائها المسلمين الصادقين من قَبْلِ الحكم الفرنسيّ والحكم الصليبيّ وحكم الأحزاب المتآلفـــة المتناحرة

وسيظهر هؤلاء في يوم قريب بإذن الله .. وسيسيرون على طريق الجهاد الحقّ بإذن الله .. مستجيبين لنداء الله عزَّ وجلّ : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـــونَ رَبَّنَـــا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا** ﴾ [النساء : ٧٥]